

## الباب السابع

### اليونان في الغرب

#### الفصل الأول

##### السيباريون

بعد أن تمر سفينتنا الخيالية بسنبوم *Sunium* وتوجه نحو الغرب تصل إلى سثرا *Cythera* مقر أفرديتي الجَزَرِي ، والتي كانت من أجل هذا مقصد وتو *Watteau* (\*). وفيها شاهد بوزنياس في عام ١٦٠ م ( أقدم وأقدم ماشاده اليونان من الهياكل لأفرديتي<sup>(١)</sup> ) ، وفيها كشف سليمان في عام ١٨٨٧ م عن أنقاض هذا الهيكل<sup>(٢)</sup> . وكانت في أقصى الجنوب من الجزائر الأيونية التي تجاور ساحل بلاد اليونان الغربي وقد سميت أيونية لأن مهاجرين أيونيين استقروا فيها ، وبقية هذه الجزائر هي زاسنثوس *Zacynthos* ، وكيفالينا *Cephalenia* ، وإثكا *Ithaca* ، ولوكاس *Leucas* ، وباكوس *Paxos* ، وكورسيرا *Corcyra* . وحسب سليمان أن إثكا هي جزيرة أديسيوس ، وحاول عبثاً أن يجد تحت ثراها ما يؤيد قصة هومر<sup>(٣)</sup> . غير أن دوربفلد *Dörpfeld* كان يعتقد أن موطن أديسيوس هو جزيرة لوكاس الصخرية . ويقول استرايون إن أهل هذه الجزيرة القدامى كانوا يلقون من فوق صخورها ضحية بشرية يقدمونها في كل عام قرباناً لأبلو ؛

(\*) كانت صورة *Embarkation for Cythera* ( السفر إلى سثرا ) التي صورها وتو تمثل روح الطبقات العليا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بعد أن تخلت عن الدين القدر الذي يسمح لها بأن تكون أيقورية .  
( ٢١ - ج ١ - مجلد ٢ )

ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا رجال دين فحسب بل كانوا فوق ذلك بشراً ، ولهذا كانوا يربطون في الضحية طيوراً قوية شفقة بها ورحمة ، حتى تخفف أجنحتها من شدة الصدمة عند سقوط الضحية على الأرض<sup>(٤)</sup> .

والراجع أن قفزة سافو نفسها ذات اتصال بذكريات هذه العادة الدينية . واحتل كرسيرا ( كورفو Corfu ) مستعمرون كورنثة حوالى ٧٣٤ ق . م ، ولم يلبثوا أن أصبح لهم من القوة ما أمكنهم بها أن يهزموا أسطول كورنثة ويقرروا استقلالهم . وسافر بعض المغامرين اليونان من كرسيرا في البحر الأدريايوى متجهين نحو الشمال حتى وصلوا إلى البندقية ؛ واستقر بعضهم في مستعمرات صغيرة على ساحل دلماشيا ، وفي وادى نهر الپو Po<sup>(٥)</sup> ، وعبر بعضهم آخر الأمر مياه البحر الهائجة وقطعوا فيها خمسين ميلا حتى استقروا في كعب إيطاليا . ووجدوا في ذلك المكان شاطئاً جميلاً ينحني فتتكون من انحنائه رافئ طبيعة آمنة ، ومن ورائه أرض خصبة أهلها السكان الأصليون إهمالا يكاد أن يكون تاماً<sup>(٦)</sup> . واستولى الغزاة اليونان على هذا الإقليم الساحلى بمقتضى قانون التوسع الاستعمارى الذى لا يعرف للرحمة معنى ، وهو القانون القاتل إن الموارد الطبيعية التى لا يستغلها أهل الإقليم تجتذب ، بنوع من الجاذبية الكيمايية ، غيرهم من الناس ليستغلوها ويدفعوا بها إلى تجارة العالم ومنفعته . واخترق الوافدون الحدود - وأكثرهم من الدورين - كعب شبه الجزيرة مبتدئين من برنتيزيوم ( برنديزى ) وأنشأوا مدينة كبيرة في تاراس Taras - تارتم الرومانية ( تارنتو الحديثة )<sup>(\*)</sup> وفيها غرسوا أشجار الزيتون وربوا الخيول ، وصنعوا الفخار ، وبنوا السفن ، وصادوا

(٥) ذكرنا في جدول الحوادث التاريخية المتصلة التواريخ المتواترة لإنشاء هذه المدن في غرب بلاد اليونان وقد أخذ ثوكيديدس هذه التواريخ عن المؤرخ القديم أنييكوس السرقوسى Antiochus of Syracuse . ومظنة انطأ فيها كبيرة ، ويعتقد منهى Mahaffy أن المدن التى أنشئت في صقلية قد أنشئت في عهود متأخرة عن العهد الذى أنشئت فيه المدن الإيطالية . غير أن تواريخ ثوكيديدس لا يزال يؤيدها تثيرون من المؤرخين<sup>(٧)</sup> .

السّمك بالشبّاك ، وجمّوا بعض القوابع البحريّة ليستخرجوا منها الصبغة الأرجوانية التي كانت أعلى قيمة من نظيرتها الفينيقية<sup>(٨)</sup> . وبدأت الحكومة كما بدأت معظم المستعمرات اليونانية بأن كانت أبحاريّة يتولاها ملاك الأرض ، ثم انتقلت إلى أيدي طبقة الممال الطبقة الوسطى ، واستمّعت بفترات من الحكم الديمقراطي القوي المضطرب . وفي هذا المكان نزل بيريّس صاحب الشخصية الروائية في عام ٢٨١ ، وأراد أن يقوم في الغرب بالدور الذي قام به الإسكندر في الشرق .

وأستت موجة أخرى من المهاجرين معظمهم من الآخيين مدينتي سيبارس وكروتونا على الجانب الآخر من خليج تارتم . وتدل الغيرة القائلة التي نشاهدها بين هذه الدول ، وكلها من أصل واحد ، على ما كان يتصف به اليونان من نشاط قوى مبدع ، وعواطف جيشة مدمرة . وكان للتجارة بين بلاد اليونان الشرقية وإيطاليا الغربية طريقان أحدهما بحري والثاني برى في بعض أجزائه . وكانت السفن التي تسير في الطريق البحري تمر بكروتونا وتبادل فيها بالكثير من بضائعها ، وتمر بعدها برجيوم Rhegium وتوّددي فيها المكوس ، ثم تجتاز في حذر بحاراً موبوءة بالقراصنة ، ومضيق مسينا الكثير الدوامات ، حتى تقبل إلى إلباوكوي ، أقصى المستعمرات اليونانية في إيطاليا شمالاً . وكان التجار الذين يختارون الطريق الآخر يفرغون بضائعهم في سيبارس ليفروا من هذه المكوس والأخطار ، وليوفروا على أنفسهم عناء السير بحراً بالمجاذيف والشراع ، ثم ينقلونها بطريق البر نحو ثلاثين ميلاً إلى ساحل لوس Laus الغربي ، ثم يحملونها مرة أخرى على ظهور السفن إلى بوسيدونيا ، ومنها تنتقل إلى الأسواق في داخل إيطاليا .

وكانت سيبارس ذات موقع حسن على هذا الطريق التجاري ، فأثرت وعمها الرخاء حتى بلغ عامرها ( إذا جاز لنا أن نصدق أقوال د يودور الصقلي<sup>(٩)</sup> )

ثلثمائة ألف نسمة ، وأثرت ثراء لا يضارعها فيه إلا القليل من مدن اليونان ، حيث أضحت كلمة سيبارى مرادفة لكلمة أبيقورى . وكان العمل الجثمانى كله يقوم به العبيد ورقيق الأرض ، أما المواطنون الأحرار فكانوا يرتدون الثياب الغالية ، ويسكنون بيوناً مترفة مريحة ، ويطعمون الأطعمة الشهية الواردة من خارج البلاد(\*) . وكان يحزم على من يشتغلون بأعمال ذات جلبة أن يمارسوا صناعتهم فى داخل حدود المدينة . وكانت بعض الطرقات فى الأحياء الغنية من المدينة تغطيها خيام ومظلات لتقى الناس شر الحر والمطر (١١) . ويقول أرسطو لانه كان لألسثنيز السيارى ثوب من نسيج بلغ من عظيم قيمته أن باعه ديونيسيوس الأول السرقوسى فيما بعد بمائة وعشرين وزنة ( ٧٢٠٠ ريبال أمريكى (١٢) ) . ولما جاء اسمندريدز Smyndrydes السيارى فى زيارة لسكيون ليخطب ابنة كليسنيز ، كان معه ألف خادم (١٣) .

وسارت الأمور على أذلالنا فى سيارس حتى انزلت إلى الحرب مع كروتونا المجاورة لها ( ٥١٠ ) . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن السياريين سارو إلى الحرب بجيش تبلغ عدته ثلثمائة ألف (١٥) . وتؤكد لنا هذه الرواية نفسها أن الكروتين أحدثوا الاضطراب فى صفوف هذا الجيش بأن عزفوا النغمات التى علم السياريون خيولهم أن يرقصوا عليها (١٦) . فلما سمعتها الخيل رقصت ، وأعمل الأعداء فيهم القتل ، ونهبوا مدينتهم ، وخربوها ، وأشعلوا فيها النيران ، حتى اختفت من التاريخ فى يوم واحد . ولما أن قام هيرودوت وغيره من الأثينيين بعد خمس وستين سنة من ذلك الوقت بالقرب من موقعها مستعمرة تورلى Thurli الجديدة ، لم يكادوا يجدون فى هذا الموضع أثراً لهذه الجالية التى كانت فى يوم من الأيام أكثر الجاليات اليونانية زهواً .

---

( ٥ ) . ويقول أثينوس إن الطهارة أو صانمى الحلوى الذين كانوا يبتدعون أصنافاً جديدة كان يسمح لهم بأن يسجلوها باسمهم ويحتكروها مدى عام (١٠) . وربما كان أثينيس يخطئ فى هذا القول بين المزل والتاريخ .

## الفصل الثاني

### فيثاغورس الكروتوني

كان عمر كروتونا أطول من عمر سيبارس ؛ فقد أنشئت في عام ٧١٠ ق . م ولا تزال حتى الآن تعج بالصناعة والتجارة بعد أن تغير اسمها إلى كروتون . وقد كان مرفؤها المرفأ الطبيعي الوحيد بين تاراس وصقلية ، ولم تكن تعفو عن السفن التي تفرغ بضائعها في سيبارس . وقد بقي فيها من التجارة ما يكفي لكي يعيش أهلها عيشة هنيئة لينة ، كما أن هزيمتهم الموقفة في الحرب ، وكساد تجارتهم زمناً طويلاً ، وجو بلادهم المنعش ، ومزاجهم الدوري المتزمت بعض الشيء ، كل هذه الظروف مجتمعة قد جعلتهم يحتفظون بنشاطهم وقوتهم رغم ثرائهم العظيم . وفي هذه المدينة نشأ الرياضيون المشهورون أمثال ميلو Mito ، كما نشأت أعظم مدرسة طبية في بلاد اليونان الكبرى ( Magna Graecia ) (\*) .

ولعل اشتهار كروتونا بأنها ملجأ صحي هو الذي حجب إلى فيثاغورس الحبيء إليها . ومعنى فيثاغورس هو « الناطق الفئسي » بلسان مهبط الوحي في دلتى ، وكان كثيرون من أتباعه يرون أنه هو أبلو نفسه ، ويدعى بعضهم أنه أبصر وميض فخذة الذهبية (١٧) . وتقول الروايات المتواترة إنه ولد في ساموس حوالي عام ٥٨٠ ، وتحدث عن جده في صباه . وتزور إليه أنه صرف ثلاثين عاماً في الأسفار . ويقول عنه هرقلبطس ، وهو الرجل الشديد الاقتصاد في مدحه إن « فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة (١٨) » . ويروى عنه أنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغالة ، وعاد يلقي على الرجالة حكمة عالية جديرة بالإعجاب هي قوله : إذا كنت مسافراً في خارج بلادك فلا

(٥) هذا هو الاسم الذي كان الرومان يطلقونه على المدن اليونانية في جنوب إيطاليا . (الترجم)

تلقت وراءك إلى حدودها<sup>(١٩)</sup> ، ويجب أن تكبح جماح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه . وما من شك في أنه زار مصر حيث درس مع الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضاً قليلاً من السخف<sup>(٢٠)</sup> . ولما عاد إلى ساموس ووجد أن طغيان پوليكرا تيز يجد من طغيانه هو هجرها إلى كروتونا وكان قد جاوز الخمسين من العمر<sup>(٢١)</sup> .

وهنا اشتغل بالتدريس ، وكانت هيئته ، وغزارة علمه ، واستعداده لقبول النساء والرجال في مدرسته ، سبباً في إقبال الناس عليها حتى بلغ عدد من فيها بضع مئين في زمن قصير . وقد قال بمبدأ تكافؤ الفرص للذكور والإناث على السواء قبل أن ينادى بذلك أفلاطون بماتى عام ، ولم يناد به فحسب بل نفذه عملياً . على أنه مع ذلك لم يكن ينكر أن بين الجنسين فوارق طبيعية من حيث وظائف كل منهما . وكان يعلم تلميذاته الشيء الكثير من الفلسفة والآداب ، ولكنه كان يعلمهن أيضاً فن الأمومة والتدبير المنزلى ، ومن أجل ذلك اشتهرت النساء الفيثاغوريات في الزمن القديم بأنهن « أعلى نموذج في الأنوثة أخرجته بلاد اليونان في جميع العصور » .

وهد وضع فيثاغورس لطلابه بصفة عامة قواعد تكاد تحول مدرسته إلى دير للراهبات . فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضاً . وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة في جميع طبقات الحياة ما داموا يعيشون في هذه الجماعة الفيثاغورية<sup>(٢٢)</sup> . وكان اللحم والسلك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ؛ ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة في جنوبي إيطاليا في هذه الأيام . وربما كان تحريم اللحم لسبب ديني ذي صلة بعقيدة تقمص الأرواح ، فإن على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم . والراجع أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين إلى حين . ويرى المؤرخون الإنجليز

بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيثاغورى أقوى رجل في بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول<sup>(٢٤)</sup> ، - وإن كان العجل الذى أصبح بين ذراعيه ثوراً<sup>(\*)</sup> قد شب على أكل الكلاؤ . وكان يحرم على أفراد هذه الجماعة أن يقتلوا أى حيوان لا يؤذى الإنسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة . وكان يطلب إليهم أن يلبسوا الثياب البسيطة وأن يطرحوا الكبرياء ، وألا « يندفعوا فى الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين » . ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن « من الواجب على كل إنسان أن يعيش عيشة تجعله خليقاً بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ إلى القسم » . وكان محرماً عليهم أن يقدموا الضحايا قرباناً ، وكان فى وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التى لم تلوثها الدماء . وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم فى آخر كل يوم عما ارتكبه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير<sup>(٢٥)</sup> .

وقد أخذ فيثاغورس نفسه بهذه القواعد وراعاها أشد مما رعاها أى تلميذ من تلاميذه اللهم إلا إن كان هو ممثلاً من أبرع المثليين . وما من شك فى أن أسلوب حياته قد أكسبه من احترام طلابه وسلطانه عليهم ما جعلهم كلهم يتحملون طغيانه بلا تدمر ، وما جعل الكلمة الفاصلة فى كل جدال أو نظرية هى : *نقد فالرها هو نفسه Autos epha-ipsi dixit* . وقد نقل إلينا فى عبارة تنم عن التعظيم وتستثير الإعجاب أن المعلم نفسه لم يشرب الخمر بالنهار أبداً ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هى الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ، وأنه لم يُعرف عنه قط أنه أفرط فى الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يفرق فى الضحك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب إنساناً مطلقاً و او كان عبداً<sup>(٢٦)</sup> . وكان تيمن الأثينى يظنه « مشعوذاً يخادع بقول الجحد ، ويعمل على اصطیاد الناس<sup>(٢٧)</sup> » ، ويتنقض هذا القول أن زوجته ثيانو Theano وابنته

دامو Damo كانتا ن أشد أتباعه إخلاصاً له ، وقد كان في وسعهما أن توازنا بين فلسفته وحياته . ويقول ديوجينز ليرتس إنه « عهد بتعليقاته إلى دامو وأمرها ألا تذيعها لأى إنسان في خارج البيت ، وإنها لم تفرط قط في أحاديثه مع أنه كان في وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أئمن من الذهب ، ويزيد في فضلها أنها امرأة (٢٨) » .

وكان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغورى يتطلب ، فضلاً عن تطهير احسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم . وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم « الصمت الفيثاغورى » مدى خمس سنين - ولعل المقصود بالصمت الفيثاغورى أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة - قبل أن يعترف به عضواً كاملاً في الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن « يرى » فيثاغورس (٢٩) أى أن يدرس عليه . وتنفيذاً لهذا النظام كان التلاميذ يقسمون إلى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه . وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة النظرية ، والحساب ، والفلك ، والموسيقى . وكان يبدأ بالرياضيات (\*) ؛ ولكنها لم تكن العلم العملى الذى استحوطت إليه على أبدي المصريين القدامى ، بل كانت علماً مجرداً نظرياً يبحث في الكميات ، ومثلاً أعلى في التدريب المنطقى يجعل التفكير منظماً واضحاً بعرضه على محك الاستدلال الصارم والبرهان الواضح الملموس . وأضحت الهندسة النظرية من ذلك الوقت مجموعة من البديهيات ، والنظريات ، والبراهين . وكانت كل خطوة في القضايا المنطقية المتتالية ترفع الطالب إلى مستوى أعلى من مستواه السابق - على حد قول الفيثاغورين - يستطيع منه أن يطلق أكثر من ذى قبل على بناء العالم (٣١) . وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن

(\*) ويلوح أن الفيثاغورين كانوا أول من استعمل كلمة ماثماتيكا Mathematike .  
بمعنى الرياضيات ، فقد كانت قبل أيامهم تستخدم للدلالة على تعلم أى شئ (٣٠) . هما يكن نوعه !

فيثاغورس نفسه كشف كثيراً من النظريات الهندسية : وأهمها كلها أن مجموع الزوايا الداخلة في أى مثلث يساوى قائمتين ، وأن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين . ويقول أبلودورس Appollodorus إنه لما كشف المعلم هذه النظرية ضحى بمائة ذبيحة شكراً على هذا الكشف العظيم (٣٢) . فإن كان قد فعل ذلك حقاً فقد ناقض المبادئ الفيثاغورية مناقضة يندى لها الجبين . وانتقل فيثاغورس من الهندسة إلى الحساب - على عكس النظام المتبع في هذه الأيام . ولم يكن يقصد بالحساب وقتئذ أن يكون فناً عملياً للتعداد والإحصاء ، بل كان نظرية مجردة للأعداد . ويلوح أن المدرسة الفيثاغورية هي أول من قسم الأعداد إلى فردية وزوجية ، وإلى أعداد صماء وأخرى قابلة للقسمة (٣٣) ، وقد صاغت نظرية النسبة ، واستطاعت بها و « بتطبيق المساحات » أن توجد الجبر الهندسي (٣٤) . ولعل دراسة النسبة هي التي أمكنت الفيثاغوريين من أن يحولوا الموسيقى إلى أعداد . ويروى أن فيثاغورس كان في يوم من الأيام ماراً بجانب حداد ، فاسترعت سمعه الفترات الصوتية الخارجة من ضربات السندان ، والتي بدت له كأنها فترات موسيقية منتظمة . ولما عرف أن الطارق ذات أوزان مختلفة استنتج من ذلك أن النغمات تتوقف على نسب عددية . وتقول إحدى التجارب القلائل التي سمعنا بها في علوم القدماء إنه أتى بوترين متساويين في السمك وفي التوتر ، وتبين له أنه إذا كان طول أحدهما ضعفي طول الآخر أخرجا إذا جذبهما نغمة من الدرجة الأولى ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة ونصف مرة أخرجا نغمة ( دو - صول ) ؛ وإذا كان أحدهما قدر الآخر مرة وثلاث مرة ، أخرجا نغمة ( دو ، فا ) (٣٥) ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن تقدر كل نغمة موسيقية تقديراً رياضياً ، وأن يعبر عنها تعبيراً رياضياً كذلك . وإذا كانت كل الأجسام التي تتحرك في الفضاء تخرج أصواتاً ، تتوقف درجة ارتفاعها على حجم الجسم وسرعة

حركته ، فإن كل كوكب في فلكه حول الأرض ( كما يقول فيثاغورس ) يحدث صوتاً يتناسب مع سرعة انتقاله ، وهذا الصوت يعلو أيضاً كلما بعد الكوكب عن الأرض ؛ ويتكون من هذه النغمات المختلفة اثتلاف في الأصوات أو « موسيقى الأفلاك » وهي موسيقى لا نسمعها قط لأننا نسمعها على الدوام (٣٦) .

ويقول فيثاغورس إن العالم جرم كرى حتى مركزه الأرض ، وإن الأرض هي الأخرى جرم كرى تدور ، كما تدور الكواكب ، من الغرب إلى الشرق . وقد قسم الأرض ، والعالم كله في الحقيقة ، خمس مناطق - المنطقة الباردة الشمالية ، والباردة الجنوبية ، ومنطقة الصيف ، ومنطقة الشتاء ، والمنطقة الاستوائية ، وقال إن الجزء الذي نراه من القمر يكبر حجمه أو يصغر تبعاً للزاوية التي يواجه بها الأرض نصفه المتجه نحو الشمس ، وإن خسوف القمر ينشأ من وجود الأرض أو أى جرم آخر بينه وبين الشمس (٣٧) . ويقول ديوجنيز ليرتس إن فيثاغورس كان أول من قال إن الأرض مستديرة ، وأول من سمى العالم كونا Kosmos (٣٨) .

وقد عمل فيثاغورس بفضل بحوثه في الرياضيات والفلك أكثر مما عمله أى عالم آخر لوضع أسس العلوم الطبيعية في أوروبا ، ولما أن تم له ذلك انتقل إلى الفلسفة . ويبدو أن لفظ الفلسفة نفسه من وضعه هو . وقد رفض أن يستخدم كلمة سوفيا Sophia أى الحكمة لأنها ادعاء عريض لا يرضاه ، ووصف سعيه لإدراك الحقائق بأنها فلسفة Philosophia أى حجة الحكمة (٣٩) . وقد صارت كلمتا فيلسوف وفيثاغورى في القرن السادس كلمتين مترادفتين (٤٠) . وبينما كان طاليس وغيره من الميليتيين يبحثون عن أصل الأشياء جميعها في المادة ، كان فيثاغورس يبحث عنه في الشكل ، وبعد أن كشف ما في الموسيقى من علاقات ونتائج متتالية عديدة منتظمة ، وبعد أن افترض وجود هذه العلاقات والنتائج المتتالية في الكواكب نفسها ، ففر قفزة الفلاسفة نحو الوحدة ، وأعلن أن هذه العلاقات والنتائج المتتالية العددية المنتظمة توجد في كل مكان ، وأن العامل الجوهرى

الأساسى فى كل شىء هو العدد . وكما أن اسپينوزا قد قال فيها بعد(\*) إن ثمة عالين - أحدهما عالم الأشياء أو عالم الناس الذى يدركونه بالحواس والآخر عالم الفلاسفة ، أو عالم القوانين والثوابت الذى يدركه العقل - وإن العالم الثانى وحده هو العالم الحقيقى الدائم ، كذلك شعر فيثاغورس أن النواحي الأساسية الخالدة لأى شىء هى ما بين أجزائه من علاقة عددية(\*\*) ، ولعله كان يرى أيضاً أن الصحة نفسها علاقة رياضية أو نسبة صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ؛ أو أن النفس كانت هى الأخرى عدداً . وعند هذه النقطة انطلقت صوفية فيثاغورس التى استفادها من مصر وبلاد الشرق الأدنى حرة لا تلوى على شىء . فقال إن النفس تنقسم أقساماً ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ؛ فالشعور مركزه القلب ، واللقانة والعقل مركزهما المخ ؛ وإن الشعور واللقانة من صفات الحيوان والإنسان على السواء(+) ، أما العقل فيختص به الإنسان وحده ، وهو خالد لا يفنى(٢٢) . وتمر النفس بعد الموت بفترة من التطهير فى الجحيم Hades ، تعود بعدها إلى الأرض وتدخل فى جسم جديد ، ثم فى جسم آخر ، وتمر فى سلسلة من التناسخ لا تنتهى إلا إذا كان صاحبها قد حسي حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها .

وكان فيثاغورس يدخل السرور على أتباعه ، أولعله كان يقوى عقيدتهم ، بقوله لهم إن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس

---

(\*) فى مقاله عن « تحمين العمل » .

(\*\*) يحاول العلم أن يجمع الظواهر كلها إلى تقديرات كمية رياضية قابلة للتحقيق . والكيمياء تتحدث عن الأشياء بلغة الرموز والأرقام ، وترتب العناصر ترتيباً رياضياً فى تونين دورية ، وترجمها إلى حساب ذرى داخل من الكهارب ؛ وعلم الفلك رياضيات سماوية ، وعلماء الطبيعة يجربون فى البحث عن قانون رياضى ينطبق على الكهرباء ، والمغناطيسية ، والهادية ؛ ولقد حاول بعض مفكرى هذه الأيام أن يعبروا عن الفلسفة نفسها فى صورة رياضية .

(+) ومن واجبتنا أن نلاحظ فى هذه المقام أن فيثاغورس قد سبق باسثير بعض السبق فى إنكاره التوالد التلقائى ، وقال إن الحيوانات كلها تولد من حيوانات أخرى عن طريق « البذور » أو « الأصيل » .

Euphorbus ؛ وإنه يذكر بوضوح مغامراته في حصار طروادة ، وإنه قد تعرف في هيكلها في أرجوس على الدرع الذى كان يابسه في تلك الحياة القديمة<sup>(٤٣)</sup> . وسمع مرة عواء كلب مضروب فقام من فوره لإنقاذه ، وقال إنه قد عرف في عوائه صوت صديق له ميت<sup>(٤٤)</sup> . وفى وسعنا أن نقبين شيئاً من الصلات الفكرية التى كانت تربط بلاد اليونان وأفريقية وآسية في القرن السادس ، إذا ذكرنا أن فكرة التناسخ هذه كانت مستحوذة في وقت واحد على خيال الهنود وعلى طقوس أورفيوس في بلاد اليونان وعلى إحدى الطوائف الفلسفية في إيطاليا .

ونحن نستشف نزعة التشاؤم الهندية تبرز في فلسفة فيثاغورس الأخلاقية بروح أفلاطون النيرة الصافية . والقصد من الحياة في النظام الفيثاغورى أن تخلص من التقمص ، والسبيل إلى ذلك هى الفضيلة ، والفضيلة هى ائتلاف الروح مع نفسها ومع الله . ومن المستطاع كسب هذا التآلف بطريقة اصطناعية . وكان الفيثاغوريون يستخدمون الموسيقى كما كان يستخدمها كهنة اليونان وأطباؤهم لشفاء الاضطرابات العصبية . وكانوا يعتقدون أن أكثر ما تحصل به النفس على التآلف هو الحكمة ، وهى فهم الحقائق التى يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ؛ وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية . أما الطريقة المضادة لهذه - أى طريقة التنازع والتطرف ، والخطيئة - فتؤدى حتماً إلى المآسى والعقاب والعدالة « عدد مربع » ، وكل خطأ « سيريع » إن عاجلاً أو آجلاً بالعقوبة المكافئة له<sup>(٥٤)</sup> . هذا هو جوهر فلسفة أفلاطون وأرسطو الأخلاقية .

أما سياسة فيثاغورس فهى فلسفة أفلاطون حققها من قبل أن يدركها . ولقد كانت مدرسة فيثاغورس ، حسب ما نفهمه من الروايات القديمة المتواترة ، أرسقراطية شيعية : تطلب إلى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن يدرّبوا على الفضيلة والتفكير الراقى بطريق

العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها . والحق أن الجهد الذى كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذى أهلكه وأهلك أتباعه . فقد اندفع المبتدئون من أتباعه فى تيار السياسة . وانحازوا إلى جانب الأشراف انحيازاً أثار عليهم حزب الشعب فى كروتونا ، فاندفع أفراده فى ثورات غضبهم ، وأحرقوا البيت الذى كان الفيثاغوريون مجتمعين منه ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة . وتقول إحدى الروايات إن فيثاغورس نفسه قد قبض عليه وقتل حين أبى فى فراره أن يظاً بتمذمه حقلاً من القول ؛ وتقول رواية أخرى إنه فر إلى ميثانتم Metapontum حيث امتنع عن الطعام أربعين يوماً - ولعله كان يحس أنه يجب أن يكفى من العمر بثمانين عاماً - وأمات نفسه جوعاً<sup>(٤٦)</sup> .

أما أثره فهو أثر خالد على مدى الأيام ؛ ولا يزال اسمه حتى اليوم طناناً رناناً ؛ كما عاش مجتمعه ثلاثمائة عام فى صورة جماعات منتشرة فى بلاد اليونان ، يخرج منها علماء طبيعيين أمثال فيلولوس Philolaus الطبيي ، وحكام أمثال أركيتاس Archytas طاغية تاتاس Tatas وصديق أفلاطون . ولقد كان وردسورث Wordsworth فى أشهر قصائده كلها فيثاغوريا من غير أن يشعر . وكان أفلاطون نفسه يهيم بصورة فيثاغورس الفاضلة ؛ وهو يأخذ عنه فى جميع نواحي نشاط الذهنى - فى سخريته من الديمقراطية ، وفى تلهفه على وجود أرستقراطية شيوعية من الحكام الفلاسفة ، وفى اعتقاده أن الفضيلة تألف ، وفى نظرياته عن الطبيعة والنفس ، وفى شغفه بالهندسة ، وفى إيمانه بقوة الأعداد الخفية . وقصارى القول أن فيثاغورس - على قدر ما وصل إليه علمنا - هو واضع أساس العلوم الطبيعية والفلسفة فى أوروبا ؛ وذلك عمل يكفى لتخليد اسم أى إنسان .

## الفصل الثالث

### زنوفانيز الإيلاني

في غرب كروتونا مكانٌ لكري Locri القديمة ، ويقول أرسطو إن هذه المستعمرة قد أسسها العبيد والزانون واللصوص الفارون من بلدة لكري في أرض اليونان القارية ؛ ولكن لعل الذي أنطق أرسطو بهذا القول هو احتقار العالم القديم للجديد . وساد بين المستعمرين الاضطراب الناشئ من أصلهم الأول ، فلجأوا إلى مهبط الوحي في دلفي يطلبون النصيحة فقبل لهم إن عليهم أن يسئروا لأنفسهم قوانين . وربما كان زلوكوس هو الذي أنطق الوحي بما نطق به ، لأنه وضع للكري في عام ٦٦٤ قوانين قال إن أثينة أملتها عليه في المنام . وكانت هذه أول قوانين مكتوبة في بلاد اليونان كلها ، وإن لم تكن أولى القوانين التي هبطت من عند الآلهة . وبلغ من حب اللكريين إياها أن حتموا على كل من يريد أن يقترح قانوناً جديداً أن يتكلم وفي جيده حبل ، حتى إذا رفض اقتراحه شفقوه بأقل كلفة من الأموال العامة(\*) (٧١) .

وبعد أن يطوف المسافر حول إصبع قدم إيطاليا ويتجه نحو الشمال يصل إلى رجيو Reggio ، وكانت مدينة مزدهرة أسسها أهل مسينا حوالي عام ٧٣٠ ق . م وسموها رجيون Rhegion وعرفها الرومان باسم رجيوم Rhegium ، فإذا اجتاز مضيق مسينا — ولعله هو الذي سمته الأوديسة « سلاوكرديس » Scylla and Charybdis — وصل إلى المكان الذي وقف فيه لوس Laus ؛

(\*) كان اليونان مولعين بهذه الخرافة ولما حلهم على أن يذكروها أيضاً عن قوانين كاتانا Catana وثوريبي Thurii ، وشف ميشيل ده منتا Michel de Montaigne هذه الحطة ، ولعلها لم تبق بعد أن استنفدت غرضها .

ثم جاء بعدئذ إلى هيلي<sup>(١٤)</sup> Hyele القديمة وهي ثليا Velia الرومانية ،  
المعروفة في التاريخ باسم إلبيا Elea لأن أفلاطون كتبها بهذه الصورة ، ولأن  
فلاسفتها وحدهم هم الذين بقي ذكرهم . وهنا جاء زنوفانيز الكلوفوني حوالى  
٥١٠ وأنشأ المدرسة الإليائية .

وكان ذا شخصية فذة لا تقل في ذلك عن عدوه فيثاغورس المحبوب  
من أهل بلده . ذلك أنه كان جم النشاط لا يكل من العمل ، مبتكراً لا يهاب  
الابتداع ، ظل ستة وسبعين عاماً - على حد قوله هو نفسه - يطوف « في  
أرض هيلاس من أقصاها إلى أقصاها » يجمع منها مشاهداته ويخلق لنفسه  
فيها أعداء أينما حل . وكان يكتب قصائد فلسفية ويتلوها على الناس ،  
ويندد بهومر ويعيب عليه سفاهته وعدم تقواه ، ويسخر من الخرافات ؛  
وقد أنشأ ميناء في إلبيا وأتم من العمر قرناً كاملاً قبل أن يموت<sup>(٢٩)</sup> . ومن  
أقواله أن هومر وهزيبود « يعزوان إلى الآلهة كل الأعمال التي تحط من قدر  
الآدميين وتجلبهم بالعار - . كالتلصص ، والزنا والغش<sup>(٥٠)</sup> . ولكنه هو لم  
يلغ شأواً بعيداً في التقى والصلاح كما يدل على ذلك قوله :

« لم يوجد في العالم كله ، ولن يوجد فيه ، رجل ذو علم أكيد  
عن الآلهة . . . فالآدميون يتصورون أن الآلهة بولدون ، ويلبسون  
الثياب ، وأن لهم أصواتاً وصوراً كأصوات الآدميين وصورهم . ولو كان  
للثيران والآساد أيد مثلنا ، وكان في وسعها أن ترسم وتصنع صوراً  
كما يفعل الآدميون ، لرسمت لآلهتها صوراً وصنعت لها تماثيل على صورتها  
هي ؛ ولو استطاعت الخيل لصورت آلهتها في صورتها ، ولصورت الثيران  
آلهتها في صورة الثيران . والأحباش يصورون آلهتهم سوداً فطس الأنوف ؛  
والتراقيون يصورون آلهتهم زرق العيون حمر الشعر . . . ألا إن ثمة إلهاً  
واحداً يعلو على الآلهة والبشر ؛ لا يشبه الآدميين في صورته ولا في عقله .

فهو كله يرى ، وكله يفكر ، وكله يسمع . وهو يسيطر من غير نصب على الأشياء كلها بقوة عقله<sup>(٥١)</sup> .

ويقول ديوجينيز ليرتس<sup>(٥٢)</sup> إن زونوفانيز قد وحد بين هذا الإله والكون . وكان هذا الفيلسوف يعلم الناس أن الأشياء كلها ، بل والثامر أيضاً ، مخلوقون من الطين والماء حسب قوانين طبيعية<sup>(٥٣)</sup> ، وأن الماء كان في يوم من الأيام يغطي الأرض بأجمعها لأننا نرى الحفريات البحرية في الأرض بعيدة عن شواطئ البحار وعلى رؤوس الجبال ، وأكبر الظن أن الماء سيغطي الأرض كلها يوماً ما في المستقبل<sup>(٥٤)</sup> . بيد أن كل ما يحدث في التاريخ من تغير ، وكل ما يحدث في الأشياء من فرقة وانقسام ، ليس لإظهار سطحية ، وأن من تحت هذا الزحام ومن وراء ذلك الاختلاف في الصور والأشكال وحدة لا تتبدل أبداً هي حقيقة العلم الباطنة الداخلية .

ومن هذه البداية سار پرمينيدس الإلباني تلميذ زونوفانيز إلى الفلسفة المثالية التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل تفكير أفلاطون والأفلاطونيين طوال العصر القديم ، وتفكير أوربا الذي دام إلى يومنا هذا .

## الفصل الرابع

من إيطاليا إلى أسبانيا

على بعد عشرين ميلاً إلى شمال إلبا كانت تقوم مدينة بسلونيا - بسم Paestum الرومانية - التي أنشأها مستعمرون من سيباريس لتكون آخر محطة برية إيطالية لتجارة ميليتس . وفي وسع الإنسان أن يصل إليها اليوم بعد سفرة لطيفة من نابلي محترقاً سالرنو Salerno ، وتظهر أمامه على حين غفلة ، على جانب الطريق ، وسط حقل مهجور ، ثلاثة تماثيل ، عظيمة حتى في عزلتها . فلقد سد النهر في هذا المكان مصبه بما يحمله من الغرين طوال القرون الماضية ، فاستحال هذا الوادى الذى كان من قبل وادياً صحياً طيباً منافع ضارة بالصحة ؛ وحتى الأقوام الذين يحرثون سفوح جبل فيزوف ، والذين لا يبالون بما يصيبهم في سبيل ذلك من أذى ، حتى هؤلاء قد فروا يائسين من هذه السهول الموبوءة بالمalaria . وقد أبقى الزمان على أجزاء من الجدران القديمة ، وأبقى كذلك بحالة أجود من حالة هذه الجدران - وكان العزلة كانت من أسباب هذا البقاء - على الأضرحة التي شادها اليونان من حجر الجير المتوسط الصلابة ، ولكنها كاملة لم تكد تنال منها يد الزمان شيئاً . وقد أقام اليونان هذه الأضرحة لآلهة الحب والبحر وأغلب الظن أن أقدم هذه المباني ، وهو البناء الذى سمي فيما بعد « الباسليكا Basilika » ، كان هيكل إپوسيدن . وقد شاهده له الأقوام الذين يعتمدون في طعامهم على فاكهة البحر المتوسط وتجارته حوالى منتصف هذا القرن السادس العجيب ، الذى خلق كل عظيم فى الفن والأدب والفلسفة بين إيطاليا وشانتنج Shantung . وقد بقيت من هذا الهيكل أعمدته الداخلية والخارجية شاهدة على شغف اليونان بإقامة العمد . وأقام الجليل الذى تلاه

هيكلا أصغر من هذا الهيكل شبيهاً به في بساطته وقوته الدوريتين . ونحن نسميه « هيكل سيريز Ceres » ولكننا لا نعرف أى الآلهة كان يشم رائحة قرابينه . وشاد جيل بعد هذا الجيل أيضاً ؛ قبيل الحرب الفارسية أو بعديها<sup>(٥٤)</sup> ؛ أعظم الهياكل الثلاثة وأحسنها تناسباً ؛ وأكبر الظن أنه شيد لهويدن أيضاً - وهو من أجدر الهياكل بهذا الإله لأن في وسع الإنسان أن يطل من أروقتة على صفحة البحر الغدار الذى يغرى المطل عليه بركوبه . وأينما ولى الإنسان وجهه في هذا الهيكل رأى عمداً : ففي الخارج رواق دورى قوى كامل البناء ، وفي الداخل رواق من العمد ذو طابقين كان يحمل أعلاها فيما مضى سقفاً . وذلك منظر من أعظم المناظر الإيطالية تأثيراً في النفس ؛ ولا يكاد الإنسان يصدق أن هذا الهيكل الذى احتفظ بكيانه أحسن مما احتفظ به أى هيكل شاده الرومان ، كان من عمل اليونان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون لا تكاد تنقص شيئاً . وفي وسعنا أن نستدل منه على ما كان للأتوام الذين شادوا أمثال هذا المركز لحياتهم الدينية من حيوية وولج بالجمال ، وما كانوا يستمتعون به من موارد ثراء ومن حسن ذوق . وفي وسعنا أن نتصور من بعد هذا صورة وواضحة جليلة لما كانت عليه المدن الكبرى مثل ميليتس ، وساموس ، وإفسوس ، وكروتونا ، وسيباريس وسرقوسة من أهة وثناء .

وعلى مسافة قليلة من الموضع الذى تقوم عليه نابلي الحديثة ، وإلى شمالها ، أقام بعض الغامرين من كولسيس ، وإرتريا ، وكيمي Cyme العوية ، وجرايا Graia ، حوالى عام ٧٥٠ ثغر كرمية العظيم أقدم المدائن اليونانية في غرب بلادهم ، وسرعان ما أثرت كرمية من استيرادها غلات بلاد اليونان الشرقية وبيعتها في أواسط إيطاليا ، وأعانتها ذلك على استعمار جيوم والسيطرة عليها ، كما سيطرت على مضيق مسينا وحرمت عبوره على سفن المدائن التى لم تعقد معها حلفاً تجارياً أو سمحت لها بالمرور بعد أداء رسوم باهظة قرضتها عليها<sup>(٥٥)</sup> . وانتشر الكوميود

جنوباً وأسسوا ديسآركيا Dicaearchia - وهي التي أصبحت فيما بعد ثغر  
پتيولى Puteoli ( پتسولى Pozzuoli ) الرومانى - ونپوليس Neapolis  
أو المدينة الجديدة وهي مدينة ناپلى الحالية . ومن هذه المستعمرات انتقلت  
الأفكار اليونانية كما انتقلت المتاجر اليونانية إلى مدينة رومة الناشئة التي  
لم يكن لها وقتئذ شأن كبير بين المدن ، كما انتقلت شمالاً إلى إتروريا .  
واختار الرومان من كومية عدداً من الآلهة اليونانية - وبخاصة أپلو ،  
وهرقليز ، وابتاعوا الملقات التي تنبأت فيها سيبل الكومية - كاهنة أپلو  
العجوز - بمستقبل رومة بأكثر مما تستحقه من الثمن .

وقبل أوائل القرن السادس بقليل نزل فوقيو أبونيا على سواحل  
فرنسا الجنوبية وأسسوا مساليا ( مرسيليا ) ، ونقلوا غلات بلاد اليونان في  
نهر الرون وروانده حتى أريس Aries ونيمز Nimes . واتخذوا من  
الأهلين أصدقاء وأزواجاً ، وأدخلوا زراعة الزيتون والكروم هدية منهم  
إلى فرنسا ، كما أدخلوا الحضارة اليونانية إلى غالة الجنوبية ، ونشروها بين  
ربوعها إلى حد يسر لرومة فيما بعد أن تنشر فيها هي الأخرى في أيام قيصر  
حضارتها الوثيقة الصلة بالحضارة اليونانية . وأسس الفوقيون في اتجاه  
الشرق على طول الساحل مدن أنتبوليس Antipolis ( أنتيب Antibes  
الحديثة ) ، ونيسية Nicaea ( نيس الحالية ) ومنوكوس Monoecus  
( موناكو ) . أما في الغرب فقد وصلوا إلى أسبانيا وأسسوا مدينة رودية  
Rhodae ( روساس Rosas ) وإمپوريوم ( أمپورياس ) وهروسكويوم  
Hemoroscopium وميناكا Maenaca بالقرب من مالقة Malaga ، وأثرى  
اليونان في أسبانيا وقتماً باستغلالهم مناجم الفضة في تارتسوس Tartessus ؛  
ولكن القرطاجيين والإتروريين تألبوا عليهم في عام ٥٣٥ ودمروا الأسطول  
الفوقى ، ومن ذلك الوقت أخذت قوة اليونان في غرب البحر المتوسط  
تتضاءل ولم تقم لهم فيه بعدئذ قائمة .

## الفصل الخامس

### صقلية

لقد تركنا إلى آخر المطاف ، أو على الأصح إلى قبيل آخره ، أغنى الأصماع التي استعمرها اليونان . ونقول أغناها لأن الطبيعة وهبت صقلية ما حرمت منه بلاد اليونان في القارة الأوربية - ونعني بذلك تربتها التي لا يكاد ينفد خصبها بفضل أمطارها وحمم بركانها - ، ولذلك كانت تنتج من القمح والحبوب الأخرى ما جعل أهلها يعتقدون أنها إن لم تكن مسقط رأس دمتر نفسها فلا أقل من أن تكون ملجأها المفضل المحبوب . لقد كان فيها بساتين وكروم ، وآجام من أشجار الزيتون مثقلة كلها بالثمار ؛ وكان فيها شهد لا يقل حلاوة ولذة عن جنى همئوس Hymettus ، وأزهار تفتح طائفة بعد طائفة من بداية العام إلى نهايته . كان فيها سهول كلثة ترعى فيها الماشية والضأن ، وتنمو على منحدرات نلالها أشجار لا يحصها عد ، وسمك البحار المحيطة بها يتوالد وينمو أسرع مما يستطيع أهل صقلية أن يأكلوه .

وازدهرت في هذه الجزيرة ثقافة من ثقافات العصر الحجري الحديدي في الألف الثالث من السنين التي قبل ميلاد المسيح ، وأخرى من ثقافات العصر البرنزي في الألف الثاني منها ؛ وحتى في الأيام المينوية كانت التجارة الخارجية تربط الجزيرة بكريت وبلاد اليونان<sup>(٥٧)</sup> . وفي أواخر الألف الثاني من السنين تكسرت ثلاث أمواج من الهجرة على سواحل صقلية : وهي موجة السكانين Sicans من أسبانيا ، وموجة الإلييمين Elymi من آسية الصغرى ، وموجة الصقليين Sicels من إيطاليا<sup>(٥٨)</sup> . واستقر الفينيقيون حوالي عام ٨٠٠ ق . م في متيا Motya وبنورموس Panormus ( بالرمو ) في غربي الجزيرة . ثم تدفق

اليونان عليها من سنة ٧٣٥ وما بعدها(\*) ، وسرعان ما أسسوا ناكسوس ، وسرقوسة ، وليونتيني Leontini ، ومسانا ( مسينا ) ، وقطانا Catana ، وجيلا ، وهميرا Himera ، وسلينس ، وأكروجاس . وكان أهل الجزيرة الأصليون في جميع هذه الهجرات يُطردون من السواحل نحو الداخل بقوة السلاح . وقد انسحبت كثرتهم إلى الأصقاع الجبلية الداخلية تفلحها وتستغلها ، ومنهم أقلية أصبحت عبيداً للغزاة . وتزواج عدد منهم مع الفاتحين بلغ من الكثرة حداً أصبح معه للدم والعادات والأخلاق اليونانية في صقلية الغلبة على طباع الأهليين ، فاتصفوا بما كان يتصف به اليونان من ثورة عاطفية وانهماك في العلاقات الجنسية<sup>(٥٩)</sup> . ولم يفتح اليونان الجزيرة في وقت من الأوقات بالمعنى الصحيح للفظ الفتح ، بل بقي الفينيقيون والقرطاجنيون أصحاب السلطة العليا على ساحلها الغربي ، ودامت الحرب بينهم وبين اليونان خمسمائة عام ، رمزاً للكفاح بين اليونان والساميين ، وبين أوروبا وأفريقية ، للاستيلاء على صقلية وبدأ هذا النزاع من جديد في العصور الوسطى بين أهل الشمال ( النورمان ) والعرب بعد أن ظلت رومة مهيمنة على الجزيرة ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وامتازت قطانا بشرائعها ، كما اشتهرت جزائر ليارى Lipari بشيوعتها ، وميرا بشاعرها سيجستا Segesta وسلينس وأكروجاس بهياكلهما ، وسرقوسة بقوتها وراثتها . وأضحت الشرائع التي سنّها كارنداس Charondas لقطانا قبل وصولون بجيل كامل أمّ وذجاً تحتذيّه كثير من المدن في صقلية وإيطاليا ، وكانت عاملاً قوياً في استتباب النظام العام وكبح الشهوات الجنسية في مجتمعات لا تحميها التقاليد القديمة ولا السوابق المقلّسة المرعية . ومن أقوال كارنداس في هذا المعنى أن في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، كما أن في مقدور الزوجة أن تطلق زوجها ، ولكن ينبغي للرجل ألا يتزوج أصغر من مطلقته كما أن عليها هي الأخرى

ألا تزوج برجل أصغر ممن طلقها<sup>(٦٠)</sup> وتروى قصة يونانية الطابع نصادفها كثيراً في القصص اليوناني أن كرندياس حرم على المواطنين أن يدخلوا الجمعية مسلحين . على أنه حدث في يوم من الأيام أن جاء هو إلى اجتماع عام يحمل سيفه سهوياً منه ، ولما أن لأمه أحد الناخبين على مخالفته لشريعته أجاب بقوله : « سأؤيد هذا القانون » ثم قتل نفسه<sup>(٦١)</sup> .

وإذا شئنا أن نتصور ما كان يكتنف الحياة من صعاب في هذه المستعمرات التي نشأت عن طريق الفتح العنيف ، فما علينا إلا أن نستعرض النزعة الشيوعية العجيبة التي كانت تسود جزائر ليبياى ( أى المحيدة ) الواقعة إلى الشمال من شرق صقلية . فقد أقام فيها حوالي عام ٥٨٠ ق . م جماعة من المغامرين جاءوا من نيدس Cnidus جنة القراصنة . وكان هؤلاء يهاجمون المتاجر المارة حول المضيق ، ويأتون بغنائمهم إلى أوكارهم في الجزيرة ويقسمونها فيما بينهم قسماً تعد مضرب المثل في العدالة . وكانت الأرض ملكاً للأهلين مجتمعين ، يخصصون عدداً منهم لفلحها ، ويوزعون غلتها على المواطنين توزيعاً عادلاً خالياً من الظلم والإجحاف . بيد أن النزعة الفردية عادت إلى الظهور على مدى الأيام ، فقسمت الأرض أقساماً امتلكها الأفراد ، وعادت تجرى في مجراها المألوف خالية من المساواة ، مليئة بالتنافس والتطاحن

وعلى ساحل صقلية الشمال كانت تقوم مدينة هيبارا ، وقد شاءت الأقدار أن تجعل منها بلاتية في الغرب ، وفيها صاغ استسكورس Stecichorus « صانع الأناشيد الجماعية » خرافات بني جنسه في صورة أغانٍ جماعية في الوقت الذي أخذ فيه اليونان يملون الملاحم الطوال ؛ وحتى هلن وأخيل نفسيهما لم ينجوا من هذا التجديد القصير الأجل بل اكتسبا على يديهما بهذا « الثواب الجديد » . وكأنما أراد استسكوروس أن يسد الثغرة بين الملحمة الميتة ، والرواية القصصية المقبلة ، فألف قصصاً شعرية ؛ روى في إحداها كيف ماتت فتاة طاهرة لأن من أحبته لم

يستجيب لحبها ، وكان الأسلوب الذي روى به هذه القصة شبيهاً بأسلوب أغاني الحب البروفنسالية Provençal في فرنسا أو قصص العصر الفكتوري في إنجلترا . هذا إلى أنه قد مهد في الوقت نفسه الطريق أمام ثيوقرطس Theocritus بأن كتب قصيدة في حياة الرعاة روى فيها موت الراعي دفينيس Daphnis الذي كان حبه لكلو Chloe موضوع الروايات اليونانية في العصر الروماني . وقد كتب استسيكوروس نفسه رواية غرامية كانت بطلتها هلن نفسها . ولما فقد استسيكوروس بصره اعتقد أن هذه الكارثة لم تحل به إلا لأنه نقل إلى الخلف قصة خيانة هلن ؛ وأراد أن يكفر لها عن ذنبه (لأنها أصبحت وقتئذ إلهة) فألف قصيدة أخرى أنكر فيها ما قاله في أغنيته الأولى ، وأكد للعالم أن هلن اختطفت من بيتها قوة واقتداراً ، وأنها لم تسلم نفسها قط لباريس ؛ ولم تذهب إلى طروادة ، بل بقيت سالمة في مصر حتى جاء منلوس لينقذها من محتها . وقد حظر الشاعر في شيخوخته هيمرا من سلطة فلارس Phalaris الأكرجاسي المطلقة(\*) ، فلما أصم فلارس أذنيه عن سماع نصحه انتقل إلى قطانا ، حيث كان قبره الأثرى من المناظر الرائعة في صقلية في العصر الروماني .

وإلى غرب هيمرا كانت سيجستا Segesta ، التي لم يبق منها إلا رواق ذو عمد دورية ناقصة تقوم الآن وسط ما يحيط بها من الأعشاب البرية . وإذا شئنا أن نتبين طراز فن العمارة الصقلية في أحسن صورته ، كان علينا أن نخترق الجزيرة إلى الجنوب حيث كانت المدينتان العظيمتان سلينس وأكروجاس . فأما سلينس فقد شادت للإلهة الصامته ، في أثناء حياتها المحزنة منذ تأسيسها في

---

(\*) وقد صاغ هذا التصدير في قالب خرافة فقال إن حصاناً قد ضايقه اقتحام وعل مرماه ، فطلب إلى رجل أن يمينه على عقاب المعتدى ووعده الرجل أن يجرب طلبه إذا سمح له أن يركبه وحرته في يده . فوافق الحصان على ذلك ، وهرب الوعل من المسمى غائماً مذعوراً ، ولكن الحصان وجد أنه قد أصبح عبداً للرجل .

عام ٦٥١ إلى أن دمرها القرطاجنيون عام ٤٠٩ ، سبعة هياكل دورية الطراز ، ضخمة ولكنها تعوزها الدقة وحسن الصناعة ، يغطيها الجص المزين بالرسوم وعليها نقوش بارزة فجة . وقد دمر شيطان الزلازل هذه الهياكل في وقت غير معروف ، ولم يبق منها سوى أعمدة محطة وتيجان ملقاة على الأرض .

وأما أكروجاس - أخرجتم الرومانية - فقد كانت في القرن السادس أكبر مدائن صقلية وأعظمها ثروة . وفي وسعنا أن نتخيلها ممتدة من أرصفتها الشديدة الحركة ، إلى سوقها الصاخبة ، وإلى بيوتها القائمة على جانب التل ، ثم إلى قلعتها الحصينة الفخمة التي تكاد أضرحتها لعلوها الشاهق أن ترفع المتعبدين فيها إلى السماء . وفي هذه المدينة رضى الأشراف ملاك الأراضي أن يسلموا زمام الحكم إلى دكتاتورية تمثل الطبقة الوسطى بنوع خاص ، شأنها في هذا شأن معظم المدن اليونانية . وفي عام ٥٧٠ اغتصب فلارس زمام الحكم ، وخذل اسمه على مر الأزمان بأن شوى أعداءه في داخل ثور من النحاس الأصفر ؛ ولقد سره بنوع خاص أن استطاع صانعو هذا الثور أن يستحدثوا فيه طريقة تجعل عويل الضحايا يخرج من طائفة من الأنايب كأنه خوار الثور نفسه<sup>(١٢)</sup> . لكنه رغم هذا كان هو وطاغية آخر من بعده يدعى ثيرون Theron الرجلين الذين تمتعت المدينة في عهدهما بالنظام السياسي والاستقرار ، وبفضلهما قطعت شوطا بعيداً في سبيل تقدمها الاقتصادي ، حتى أصبح تجار أكروجاس كما أصبح تجار سلينس ، وكرتونا ، وسيبارس أصحاب الملايين في تلك الأيام ، وكان ذوو المال الأقل منهم شأناً في بلاد اليونان القديمة ، يحسدونهم شرا على ثرائهم العظيم ، وينتقمون لأنفسهم منهم بازدرائهم ، ويقولون إن الأثرياء الجدد مولعون بالفصخامة والمظهر ، ولكنهم يعوزهم الذوق وجمال الفن . وما من شك في أن هيكل زيوس في أكروجاس كان يمتاز بضخامته ، فقد وصفه بوليبيوس بأنه «لا يعلو عليه هيكل آخر في حجمه أو تصميمه»<sup>(١٣)</sup> ، وليس في مقدورنا أن نقدر ما كان عليه من

جبال ، لأن الحروب والزلازل دمرته تدميراً ، ثم سادت أكروجاس بعد جبل من ذلك الوقت ؛ أى فى عصر بركليز ، هياكل أخرى أقل من هذا حجماً . وقد بقى أحدها وهو هيكل الوفاق Concord بكامل أجزائه تقريباً ، كما بقى من هيكل هيرا طائفة من العمد تؤثر فى النفس بروعتها . ويكنى ما بقى من المعبدىن للدلالة على أن اللوق اليونانى لم يكن مقصوراً على أثينة وحدها ، وعلى أن الغرب التجارى نفسه قد أدرك أن الرقى ليس فى الضخامة . وفى أكروجاس ولد إمدقليز العظيم ، ولا يبعد أن يكون قد مات فيها أيضاً لافى فوهة بركان إتنا Etna .

وبدأت سرقوسة بالصورة التى هى عليها اليوم - قرية محتشة على لسان أرتيجيا Ortygia الجبل المتد فى البحر . وكانت كورنثة قد أرسلت فى القرن الثامن جماعة من المستعمرىن مسلحين بأخلاق قويمه وأسلحة متفوقة للاستيلاء على شبه الجزيرة الصغيرة . ولعلها كانت وقتئذ جزيرة ، فبنوا أو وسعوا الطريق الذى يصلها بأرض صقلية ، وطردها معظم الصقليين إلى داخل الجزيرة . وازداد أبناؤهم كما يزداد أبناء الشعب القوى فى الأرض الكثيرة الموارد ، حتى أصبحت مدينتهم على مر الأيام أكبر المدن فى بلاد اليونان كلها ، فكان طول محيطها أربعة عشر ميلا ، وسكانها نصف مليون . وقام العامة من سكانها الذين لم يكن لهم ما لسائر الأهلىن من حقوق سياسية ، ومعهم الصقليون المسترقون بثورة على الأشراف ملاك الأراضى واستولوا منهم على أزمة الحكم فى عام ٤٩٥ . ولكن الديمقراطية الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أرسطاطاليس<sup>(٦٤)</sup> ، عجزت عن أن تقيم مجتمعا منظما ، وما زالت كذلك حتى قام جيلون الجبلى Gelon of Gela فى عام ٤٨٥ واستبدل بها دكتاتورية مستعينة على ذلك بنحطة من الغدر المستنير . وكان كالكثيرىن من أمثاله حاكما قديرا لا يرعى عهدا ولاذمة ، يسخر من جميع المبادئ الأخلاقية والقيود السياسية ، جعل من أرتيجيا حصنا منيعا لحكومته ، وفتح نكسوس ،

وليونتينى ؛ ومسانا ؛ وفرض الضرائب على شرقى صقلية كله ليستعين بها على جعل سرقوسة أجمل العواصم اليونانية . ويقول عنه هرودوت متحسراً :  
« وهذه الطريقة أصبح جيلون ملكاً (\*) عظيماً » (٦٥) .

ثم صلح حاله وصار بابايون صقلية المعبود ، حين بعث خشيارشائ أسطوله ليهاجم أثينة ، فسير القرطاجنيون عمارة بحرية يكاد عدد سفنها أن يساوى عدد مراكب الأسطول الفارسى ؛ لتتنزع جنة الجزائر كلها من أيدي اليونان . وكان مصير الجزيرة هو نفس المصير الذى لاقته بلاد اليونان حين واجه جيلون هملكار فى هيمرا فى نفس الشهر - أو فى نفس اليوم كما تقول الرواية المتواترة - الذى واجه فيه ثمستكليز خشيارشائ فى سلاميس .

---

(\*) ويقول لوشيان Lucian : « لقد كان جيلون السرقوسى أبخر ، ولكنه لم يعرف ذلك عن نفسه إلا بعد زمن طويل ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يطلع الطافية المتعب على هذه الحقيقة حتى جرأت امرأة أجنبية كانت ذات صلة به على أن تطلعه عليها . فإكان منه إلا أن ذهب إلى زوجته وأنها على سكوتها عن ذلك رغم ما لديها من الفرص الكثيرة التى كانت تمكنها من الإفشاء إليه بهذا السر . وكان دفاعها أنها كانت تظن أن الرجال كلهم على شاكلته لأنها لم تعرف الرجال عن قرب طوال حياتها ولم تقرب منهم قط (٦٦) » . وبذلك لم يجد لنفسه حيلة معها .

## الفصل السادس

### اليونان في أفريقية

وكان من حق القرطاجنيين أن يوجسوا في أنفسهم خيفة ، لأن اليونان شيدوا مدناً عامرة على ساحل أفريقية الشمالى نفسه وأخذوا يستولون على تجارته . فقد أرسل الدوريون أهل ثيرا منذ عام ٦٣٠ جالية كبيرة إلى قورين في منتصف الطريق بين قرطاجنة ومصر . ووجدوا فيها على حافة الصحراء تربة خصبة ومطراً بلغ من غزارته أن قال عنه أهل البلاد إن في السماء من فوقهم فرجة تنصب منها الأمطار . واستخدم اليونان بعض الأرض للرعى ، وأصدروا منها إلى الخارج الأصواف والجلود واستنبتوا من نبات الأنجدان تابلا كانت بلاد اليونان بأجمعها تحرص على شرائه ؛ وكانوا يبيعون غلات بلادهم إلى أفريقية ، وارتقوا بحرفهم البدوية إلى حد جعل المزهريات القورينية من أحسن مزهريات العالم .

وانتفعت المدينة بثروتها على خير وجه وأحكمه ، وازدادت بالحدائق الغناء ، وبأعظم الهياكل والتماثيل وحلبات الألعاب . وفيها ولد ارستپوس Aristippus أول فيلسوف أبيقورى ذائع الصيت ، وإليها عاد بعد تجوال طويل ليؤسس المدرسة القورينية .

وحط اليونان رحالهم في مصر نفسها وهي المعروفة بكراهيتها لاستيطان الأجانب بها(\*)؛ وأنشأوا لهم فيها آخر الأمر إمبراطورية . فقد أنشأ الميليثيون حوالى عام ٦٥٠ محطة تجارية عند نقراطيس على فرع النيل الكانوبى . وسمح

---

(\*) هذا ما يؤيد التاريخ نقيضه فقد كانت مصر على الدوام كريمة مضيافة لزلانها الأجانب الصالحين ينعمون بخيراتها كما ينعم بها أبناءها . ( المترجم )

لم أيسماتيك الأول فرعون مصر بإنشائها لأنهم يصلحون لأن يكونوا جنوداً مرتزقين ، ولأن تجارتهم كانت غنيمة طيبة له يحصل منها جبايته على ضرائب بحرية عالية<sup>(٦٧)</sup> . ووهبهم أمس الثاني قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي ؛ وأصبحت نقراطيس مدينة صناعية أو كادت ، تنتج الفخار ، والقرميد ، والخزف الرقيق ؛ وأهم من هذا أنها أصبحت مستودعاً تجارياً عظيماً ، يأتي إليها زيت بلاد اليونان وخرها ، وترسل قمح مصر وتيلها ، وصوفها وعاج أفريقية وعودها وذهبها . وانتقلت مع هذه المتاجر معارف مصر ، وطقوسها الدينية ، وعمارتها ، ونحتها ، وعلومها الطبيعية إلى بلاد اليونان ، كما دخلت مصر مع غلات اليونان ألفاظهم وأساليبهم في الحياة ، فهدت السبيل إلى سيطرة اليونان على مصر في العصر الإسكندري .

وإذا تصورنا مركباً يونانياً يسير من نقراطيس إلى أثينة ؛ أتمنا بذلك طوافنا حول العالم اليوناني . ولقد كان واجباً علينا أن نطوف هذا الطواف الطويل لكي ندرك مدى الحضارة الهيلينية ونشعر باختلاف مظاهرها . ولقد قص علينا أرسطاطاليس تاريخ النظام الدستوري في ١٥٨ دولة من دول المدن اليونانية ، ولكنه أغفل تاريخ ألف مدينة غيرها . لقد كانت كل واحدة منها تضطلع بنصيبها في تجارة البلاد التي نطلق عليها اسم بلاد اليونان ، وصناعتها ، وتفكيرها . وفي المستعمرات لا في أرض اليونان الأصلية ولد فنا الشعر والنثر اليونانيان ونشأت علوم الرياضة وعلوم ما وراء الطبيعة ، والخطابة والتاريخ ، اليونانية . ولولا هذه المستعمرات وعشرات المئات من اللوامس الماصة التي بثتها في العالم القديم تمتص بها ما فيه من علم وفن وثقافة ، ولولا هذه وتلك لما وُجدت الحضارة اليونانية وهي أئمن نتاج التاريخ بأجمعه ، وعن طريق هذه المستعمرات واللوامس انتقلت حضارة مصر والشرق إلى بلاد اليونان ، وانتشرت الثقافة اليونانية انتشاراً بطيئاً في آسية وأفريقية وأوروبا .